

البعد الروحي والأخلاقي لقيام الحضارة واضمحلالها عند ألبرت اشفيتسر

إن قضية الحضارة هي من أهم القضايا وهي أيضاً من القضايا الشائكة التي شغلت الكثير من العلماء والمفكرين والفلاسفة والمؤرخين.

ولدينا هنا المفكر الدكتور ألبرت اشفيتسر، إنه هو الذي أوضح دور الأخلاق والروح والفكر في بناء الحضارة، وأن الافتقار إلى هذه العناصر سيؤدي بالضرورة إلى انهيار الحضارة.

لقد كان موقفه الشهير في قضية الحروب هو خير دليل على أن فساد الأخلاق وضياعها هو العامل الأساسي في انحلال أي حضارة، إذن ما نشهده اليوم من انحلال ليس نتيجة للحرب، فهذه هي مجرد مظهر، بدليل أن الدول التي لم تشارك في الحرب تعاني هي الأخرى من أزمة الحضارة.

ويرجع اشفيتسر هذا الانحلال إلى الفلسفة، فلم يعد بمقدورها القيام بواجبها. لقد تركت الفلسفة مهمتها وهي قيادة الفكر، وتوجيه الأفكار نحو الاهتمام بمثل الحضارة.

لقد كانت الفلسفة ذات يوم هي التي تقود الرأي العام، وتوجهه نحو المثل الأخلاقية التي هي مثل الحضارة.

لقد كانت الفلسفة تقود الأفكار وترشدنا خلال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر؛ حيث كانت تهتم بالمسائل التي تظهر للإنسانية في كل فترة، وتحمل فكر الإنسان المتحضر على إدامة النظر فيه.

لقد قال اشفيتسر عن الفلسفة قولاً مشهوراً معروفاً وهو: "إن الحارس الذي كان ينبغي عليه أن يظل ساهراً يقظاً كان هو نفسه نائماً ساعة وقوع الخطر". والمقصود بالطبع الفلسفة. أما النقطة الثانية في هذا الموضوع فهي فقدان التوازن بين الظاهر والباطن في الحضارة.

لقد تعرضت الحرية الروحية للناس لعدة أخطار لم تكن موجودة من قبل، فالصانع أصبح يقهر الآلات مجرد أداة في المصنع كالألة أو كجزء مكمل لها، وأصبح التاجر الصغير أيضاً يستغله المستخدم شيئاً فشيئاً. وتحت هذه الظروف وغيرها أصبح الإنسان مفتقراً إلى الحرية، وذلك إلى الجانب الأساسي وهو أن نظام المصانع يخلق أعداداً هائلة من الناس قد انفصلت عن الأرض التي تغذيها، والبيوت التي تسكنها.

إن المعرفة والقوة الإنسانية تؤثر تأثيراً مدمراً أيضاً على الشخصية، فالزيادة الهائلة في المعرفة تؤدي إلى التخصص في العمل، وهذا يؤثر على شخصية الإنسان تأثيراً هداماً. وذلك الوضع لا ينظر إلى الإنسان ككل بل ينظر إليه نظرة جزئية. فالصانع لا يفهم حرفته كما كان يفهمها أسلافه بل أصبح متخصصاً في جزء محدد، ومن ثم لا تنمو ما لديه من ملكات. وفي ميدان التربية نجد المعلم نفسه قد أصبح متخصصاً في جانب محدد، ومن ثم فلم يعد لديه القدرة على الإبداع والتخيل. إذن المعلم يفتقر إلى الحرية الروحية المبدعة على عكس المعلم في الماضي.

أنظر كتاب

The Decay and the Restoration of Civilization